الأمن الثقافي العربي

د. محمود السيد ❁

طالما تردد في أدبياتنا مصطلح الأمن الغذائي العربي الرامي إلى اعتماد الأمة العربية على ذاتها في توفير الثروة الزراعية لأبنائها في منأى عن الاعتماد على الآخرين والارتهان لهم في تأمين حاجات أبناء الأمة من الغذاء، بحيث يبقى القرار في يد الأمة لا في يد غيرها. وهذا الإجراء يجعل الأمة واقفة على أرض صلبة لا تخضع للابتزاز والرضوخ، ويصون سيادتها واستقلالها، وهذا ما انتهجته سورية في العقود الأخيرة من القرن الماضي.

وإذا كان تحقيق الأمن الغذائي العربي

❁ أديب وناقد ورئيس لجنة تمكين اللغة العربية، وأستاذ جامعي ووزير سابق.

من الأهمية بمكان فإن تحقيق الأمن الثقافي العربي لا يقل أهمية عن الأمن الغذائي العربي بل يعلو عليه، ذلك لأن الثقافة هي هوية الأمة، وهي تراثها المادي والروحي، وسلوكها الحياتي، وطموحها المستقبلي.

ومن المؤلم حقاً أن تتعرض ثقافتنا العربية لمحاولات التشويه والتعتيم والاستبعاد والتهميش، ونفر كبير من أبناء الأمة عن تلك المحاولات غافلون، وعن التصدي لها مقصِّرون. وإذا أردنا أن نحدّد أهم العوامل التي تحول دون توفير الأمن الثقافي العربي فإننا نلاحظ أن هناك عوامل خارجية وأخرى داخلية.

ومن التحديات التي تواجه الثقافة العربية التحدي الصهيوني، وهو تحد عالمي يجيء في مقدمة التحديات كافة، ذلك لأن الصهيونية غزو استعماري استيطاني غير قابل للامتصاص بسبب جبلته العنصرية وطبيعته العدوانية، وما اعتداءات إسرائيل المتكررة على المنطقة العربية في فلسطين ولبنان وسورية، وممارساتها الإجرامية، هدماً للبيوت، وتهجيراً لساكنيها، وسجناً، واضطهاداً، وتضييقاً على المواطنين، واستبعاداً للتسميات العربية، ووضع الكلمات العبرية مكانها، وتشويهاً للتاريخ العربي الإسلامي، إلا أمارات جليّة وواضحة على طبيعة هذا التحدي العدواني الذي يعد أخطر عامل هدّام في صرح الأمن الثقافي العربي.

ومما يتعرض له الأمن الثقافي العربي في حياتنا المعاصرة إرهاب الفكر التكفيري الذي لا يعترف بالآخر، وانتفاء القيم الإنسانية من قلوب ذويه، وتقديم أبشع الصور عن الإسلام، دين المحبة والرحمة والتعاضد والتكاتف والتوادّ والتعاطف والإنسانية والإيثار، وإذا هو في منهجية هؤلاء تعصب وحقد وغِل وكراهية وبغضاء وتمثيل بالجثث، وأكل للأكباد، وانضواء ذلك تحت الجهاد.

وواقع الأمر يدل على أن ثمة علاقة وشائجية بين التحدي الصهيوني وإرهاب الفكر التكفيري، فكلاهما يروم وأد الحياة بنشره الخراب والدمار وإشاعة الرعب في النفوس، والحؤول دون أي إحساس بالأمن والأمان، والسكينة والاطمئنان.

ومن التحديات التي تواجهها الثقافة العربية في عالمنا المعاصر ثورة التقانة (التكنولوجيا)، والمعلوماتية، والتفجر المعرفي المتسارع، وثورة الاتصالات في ظلال العولمة والتبعية الإعلامية، والغزو الثقافي، وهذا كله يحول دون توفير الأمن الثقافي العربي لأبناء الأمة، إذا لم تكن ثمة مواكبة لروح العصر من جهة، ومواجهة للآثار السلبية للعولمة من جهة أخرى.

وإذا كانت هـذه التحديات خارجية في معظمهـا فـإن ثمة تحديـات داخلية تزيد الطـين بلة، ومن هذه التحديـات الداخلية الأميـة، فثمة ملايين مـن جحافل الأميين تتوضع في أحزمة الفقر والمناطق العشوائية والنائيـة والمحرومة والمعزولة وبين النسـاء والفتيات بصورة خاصة.

وكان للاضـطرابات وموجات الإرهاب التكفـيري وزج الأطفـال في حمل السـلاح وتدريبهم على ممارسـة العدوان، وتسربهم من مقاعد الدراسة، دور كبير في زيادة حجم الأمية.

ومـن يلقِ نظـرة على خريطـة الوطن العربي بغية رصد المشهد الثقافي فيها يجد أن ثمة سـيادة للإعلام الترفيهي السطحي من جانب والإعلام المضـلل من جانب آخر، وأن ثمة جزئية في منظومة الثقافة العربية، وقصوراً عن التطبيق الشـامل، وضعفاً في الصناعات الثقافية.

والسؤال الذي يمثل أمامنا: كيف يمكننا في هـذه الظروف العصـيبة أن نعمل على تحقيق الأمن الثقافي العربي، وواقعنا العربي علـى هذه الحال مـن الفوضـى والتخبط والعشوائية والتشرذم؟

والواقع أن المنظومة الثقافية لا تعمل في جزيرة منفصـلة، وإذا أريد للنظام الثقافي أن يحقـق مراميـه وأهدافـه كان لابد من تحقيق التكامـل بين هذا النظـام الثقافي وبقية الأنظمة، لأن ثمة علاقة عضوية بين ما هو ثقافي، وما هو اجتماعي، واقتصادي، وسياسـي، وهـذه العلاقة العضـوية على مستوى الوطن وعلى مستوى الأمة، ذلك لأن العمـل الثقافي مؤثـر في الأداء الاجتماعي والاقتصادي والسياسـي ومتأثر في الوقت نفسـه بمسـتوى هـذا الأداء ووجهتـه في الميادين كافة.

وإذا كانـت الثقافـة لا تقـوم على معد فارغـة فليس بالمعد الممتلئـة وحدها يحيا الإنسان.

فالتكامل بين أنظمـة المجتمع أمر مهم وضـروري في التوجـه نحـو توفـير الأمن الثقـافي، مـع الأخـذ بالحسـبان أن هذا الأمـن الثقـافي لا يمكـن أن يحافظ على بقائه واسـتمراريته إلا في حـال توفر أمور أخرى، منها سيرورة الثقافة العلمية، وتزويد المواطنين بأساليب التفكير العلمي، والعناية بالبحث العلمي في مواجهة مشكلات حياتنا البيئية والاجتماعية والاقتصادية...إلخ.

ذلك لأن التثقيف العلمي عملية أساسية في بناء المواطن بناء سليماً وإيجابياً وفعالاً، والركيزة الأساسـية للتثقيـف العلمي هي تربيـة الجيل بتعويده علـى التفكير العلمي والمنهج العقلاني في تناول شؤون حياته.

وإذا كانـت ثمة عناية بإكسـاب الجيل

منذ نعومة أظفـاره مهارات التفكير العلمي فإن مهمتنا تنجـح في تحرير الفكر العربي المعاصـر من إرهاب الفكر التكفيري والفكر الخرافي والتزمت والتعصـب وضيق الأفق والأثـرة، وبذلك نعمل على تأصـيل احترام العقـل، والنقـد الذاتي، واحـترام الآخر، والإيمان بالتعددية.

كما أن العناية بالبحث العلمي أمارة على التقدم الفكري وارتقاء المجتمع، إذ لا يمكن أن تعالج قضايا الثقافة والمشكلات المتعلقة بهـا إلا بطريق البحـوث العلميـة الجادة والأصـلية تشخيصـاً وتخطيطـاً وتنفيذاً ورسـماً للحلول، وذلك هو السبيل إلى تنمية الثقافة العربية بصـورة متجانسـة توفيراً للوقت والجهد، وتحقيقـاً للوحدة الثقافية لهذه الأمة.

والتنميـة الثقافيـة العلميـة لا تكـون بالعناية بالنخبة فقط، ولكن يجب أن تتجه إلى القاعدة الشـعبية الواسـعة، ففي هذه القاعدة عملها، وفيها تتحدد حاجاتها، وتلك هي مسؤولية المجتمع بكامله أسرة ومدرسة ومنظمـات واتحادات ونقابـات ومنتديات وجمعيات..إلخ.

يشـترك فيها عمل المدرسـة في التربية والتعليـم، وعمل الأسرة في القيم والتقاليد، وعمـل المجتمـع في الممارسـة والسـلوك الحياتـي، وعمل الفكر العلمي ومضـامينه وأنمـاط الإنتاج وشروطـه، وعمل الإعلام وأهل الفنون والآداب...الخ.

وإذا كانت التنمية الثقافية تشمل جميع المناطق الجغرافية، وجميـع أبناء المجتمع، وتوفـير الإمكانـات والوسـائل، وإعـداد الكفايات اللازمـة للعمل في مختلف حقول التثقيف فإن العناية ينبغي لها أن تركز على الأطفال والشـباب والنساء وذوي الحاجات الخاصة أيضـاً، لأن الأطفال والشباب هم مسـتقبل الأمة، كما أن النسـاء الراقيات، والأمهات الواعيات، أمارة على أمة راقية.

ولا يمكـن للثقافـة العربيـة أن تثبـت وجودهـا إلا بإحياء الـتراث، ونشر روائعه، وإزالـة التعتيم عنه، والجمع بين الأصـالة والمعاصرة، على أن الأصالة تعني اختيار ما في التراث من نماذج وأصول ومواقف اختياراً قائماً على الفهم والتمييز، وعلى ما تنطوي عليـه من الإبداع والابتـكار، وعلى ما تدل عليه من ذاتية ثقافة الأمة وذاتية العبقريات التـي أسـهمت في تطوير هـذا التراث في مجـالات الفكر والثقافـة، وجوهرها تأكيد خصائص الإبداع والابتكار، وذاتية الثقافة وتميزها واتصالها بعراقة الأمة في ماضيها الحي واستمرارها في التعبير عن شخصيتها في مستقبلها.

كما أن المعاصرة لا تعني احتذاء الثقافة الأجنبيـة، والإقبال عليها، والاقتباس منها،

وإنما حسن الاختيار والمفاضلة بين عناصرها، والتمييز بين الحسن والسيئ، وعدم الوقوف عندها، بل جعلها منطلقاً إلى الإبداع والابتكار. وبذلك تكون المحافظة على هوية الأمة.

إلا أن المحافظة على هوية الأمة لا تنفي أهمية الانفتاح الرحب على الثقافات الأخرى في جو من العقلنة، وذلك لأن الحفاظ على الهوية لا يعني الجمود، بل هو عملية تتيح للمجتمع أن يتغير ويتطور من دون أن يفقد هويته الأصلية، وأن يتقبل التغيير من دون أن يغترب فيه، إنه التفاعل بين الأصالة والمعاصرة، بين الإيجابي البناء في تراثنا، والإيجابي البناء في الثقافات الأخرى.

وما دمنا في صدد البحث في الأصالة حفاظاً على هوية الأمة فإن العناية باللغة العربية ودعم مسيرة التعريب من أولى الأولويات أيضاً، ذلك لأن اللغة العربية تعدّ من العناصر الأساسية في استمرار الثقافة العربية، لأنها مستودع تراث الأمة بما تحمله في طياتها من خبرات وفكر ومضامين.

وسيرورة اللغة العربية في جميع مناحي الحياة واجب قومي، والحؤول دون استخدام العاميات في البرامج الثقافية كافة مطلب قومي، ولا يتم فكر من غير لغة ذاتية له، ولا علم دون لغة تعبير ذاتية له، ويبقى الفكر العربي ناقصاً وغريباً إذا لم يقرأ، ويكتب، ويفكر فيه بالعربية. ومن هنا كانت ضرورة التعريب وسيادة اللغة العربية تنبع من مستويات متعددة.

فالتعريب من الجانب القومي ضرورة قومية، لأن اللغة مقوم أساسي من مقومات الوحدة.

والتعريب من الجانب التربوي ضرورة حياتية وعلمية، لأن المرء يفهم بلغته الأم أكثر مما يفهم بأي لغة أخرى.

والتعريب من زاوية الأمن الثقافي ضرورة لإيقاظ الوعي بالغزو الفكري والتبعية الأجنبية المتزايدة.

والتعريب من ناحية الإبداع والابتكار ضرورة للانتقال من استهلاك الأشياء إلى صنعها، وإسباغ الطابع العربي عليها.

ويستلزم توفر الأمن الثقافي العربي الحؤول دون نزف العقول، وتوظيف الكفايات المتميزة في عملية التنمية الثقافية، وتوفير متطلبات الأطر الكفية، وسيرورة التعامل النفسي (السيكولوجي) في التعامل معها حفاظاً عليها وتعزيزاً لأدائها.

ويستلزم تحقيق الأمن الثقافي العربي إضافة إلى توفير الأطر الكفية والحؤول دون نزف العقول التي تحتاج إليها الأمة في مضمار التنمية الشاملة، الالتفات إلى توظيف الأموال في مجال الصناعات الثقافية، إذ من الملاحظ أن صناعة الأفلام

والاتصال والثقافة من أكثر الصناعات تخلفاً في الوطن العربي، وهي مستوردة من الخارج في معظمها، وأن امتلاك هذه الصناعات أضحى من مستلزمات التحرر والاستقلال السياسي والاقتصادي تحقيقاً للأمن الثقافي العربي.

إن الاستثمار في الصناعة الثقافية على أساس قومي يسهم أيما إسهام في رخص تكاليفها، ومن ثم في نشر الثقافة والأمن الثقافي، ورفض عملي للتبعية ودعم كبير لتنمية الثقافة العربية، ذلك لأن الأمن الثقافي لا يمكن ضمانه إلا بامتلاك الأدوات والأجهزة المتحكمة في إنتاج الثقافة ونشرها، وإذا كانت الصناعات الثقافية كافة من الأهمية بمكان فإن التركيز على الإلكتروني المتطور منها يبدو أكثر شأناً وخطراً في مستقبل الأمة، ولا يمكننا أن ننسى النقلة النوعية التي خطتها الهند في مضمار البرمجيات المعلوماتية، والمستوى الذي وصلت إليه في عالمنا المعاصر؛ في الوقت الذي نرى فيه أن الأمة لا تنقصها الإمكانات المادية، ولا تنقصها العقول المبدعة، ولكن الذي ينقصها سوء التخطيط وضياع البوصلة حتى باتت لا تفرق بين عدو وصديق، ورحم الله شاعرنا العربي إذ يقول:

كم معشرٍ خلناهُمُ أنصارنا
فإذا هُمُ لعداتنا أنصار

والواقع أن سوء التخطيط على الصعيد العربي، وانحسار المد القومي فسح في المجال لبروز الإقليميات الضيقة، وبث فتن الطائفيات البغيضة، والإرهاب التكفيري المدمّر، وارتماء بعض الدول العربية في أحضان الغرب وأمريكا والوقوف في خندق واحد مع أعداء الأمة والعدو الصهيوني بعد أن فقدت الأمة البوصلة ويا للأسف!.